من معنى مستتر ، هو تقسيم الحبشة بين إيطاليا وانكلترا ، واختصاص إيطاليا بالقسم الشرقي الذى تحتل قسماً منه ، واختصاص انكلترا (فيما بعد) بالقسم الغربي الذى تقع فيه منابع النيل الأزرق ، والذى تحرص كل الحرص على استخلاصه من يد أية دولة أوربية أخرى ؛ بيد أن هذا الرجوع السريع الحازم من جانب السياسة البريطانية إلى خطتها الأولى ، أعنى خطة الوقوف فى وجه إيطاليا ومقاومتها عن طريق العمل الدولى ، قد رد إليها كثيراً مما كادت تخسر من هيبة ونفوذ

على أننا نستطيع أن نستخلص من هذه المأساة الدولية درساً بليغاً يؤيد ماذهبنا إليه فى صدر مقالنا بشأن عصبة الأمم ؛ فما كانت العصبة يوما ملاذاً للعدالة الدولية وحقوق الأمم الضعيفة ، ولاسيما الأمم الشرقية ، ولن تكون العصبة يوما ملاذا حقيقيا لهذه المثل العليا . وإذا كان موقف العصبة فى المسألة الحبشية قد أسبغ عليها هيبة لم تتمتع بها منذ نشأتها ، فان الفضل فى ذلك لايرجع إلى إرادة العصبة ذاتها أو إلى استقلالها ونزاهتها بقدر ما يرجع إلى العوامل السياسية والاستعمارية الخارجية التى شرحناها ؛ وكون العصبة تعمل فى مثل هذه الظروف أداة مسيرة ، لا يؤكد الآمال التى يمكن أن تثيرها نصوص دستورها الخلاب ، بل كل ما هنالك يثير الريب دائماً فى وسائلها وغاياتها . ومع ذلك فان عصبة الأمم يمكن أن تكون أداة حقيقية لتأييد السلام العالمى والعدالة الدولية ، ولكنها يجب قبل كل شىء أن تحرر من ذلك النفوذ الذى يوجهها وينحرف بها عن العمل للغاية الحقيقية التى انشئت لها إلى العمل لغايات السياسة القومية والاستعمارية . وقد رأينا فى مثل إيطاليا وما نالها من أثر العقوبات الاقتصادية ، قوة العمل الاجماعى وتأثيره الفعال فى كبح جماح الشهوات القومية ؛ فاذا صلح دستور العصبة ليلائم الظروف الدولية الحاضرة ، وإذا استطاعت الأمم أن تضع ثقتها فى سياسة الضمان المشترك والسلامة المشتركة ، فان العالم يستطيع أن يتجنب كثيراً من الحروب الاعتدائية المخربة . ولكن هل تستطيع الدول الاستعمارية الكبرى أن تتجرد عن غايات الأثرة القومية ، أو تعدل عن الالتجاء إلى القوة الهمجية التى تمكنها من أعناق الفرائس الضعيفة المغصوبة ؟

(***)

شهيد عهد شهداء أحد

أنس بن النضر

للأستاذ خليل هنداوى

كتب الله النصر للمسلمين فى غزوة « بدر الكبرى » ؛ وكان نصراً رائعاً للدعوة الاسلامية ، فانصرف المشركون وفى كل عضو من أعضائهم جراحة من أثر بدر ، وفى كل بيت من بيوتهم مناحة لفقد عزيز من أعزائهم يوم بدر ؛ وقد تبرأ هذه الكلوم ، وتهدأ هذه المناحات ، ولكن المضض كامن فى صدور كأنها الدروع المنطوية فى النار

— ألا يعود يوم كيوم بدر نثأر فيه لشرفائنا ، ونلوك أكباد أعدائنا ! إنه إن يعد — وهبل — نشف منهم النفوس أو تضمنا الرموس .. ..

والمسلمون خلال ذلك تخفق ألوية النصر عليهم ، وأصحاب بدر يخطرون طربين بما أوتوا ، يجلسون حلقات ، هذا يتحدث عن بلائه ، وذلك عن بطشه بأحد رؤوس قريش ، وقد يسمع النبى لحديث من أحاديثهم فيغلب الاشفاق على قلبه ويود لو أن دماء قومه لم تهدر ، ولكن الدعوة تفتقر إلى ضحايا ! وقد يغادر المتحدثون هذه الأصناف من الحديث ، لا لأن بدراً يفرغ حديثها . . . وإنما يعودون إلى التحدث بينهم : كيف ألقى الله الرعب فى قلوب أعدائهم ، وثبت منهم الأقدام ، وزلزل أقدامهم ، ويشكرون الله على صدق وعده لهم ، فما أخف نفوس هؤلاء البدريين الذين قاتلت جنود الله معهم ! ويكفى أحدهم إذا أراد أن يفتخر أن يقول : « أنا بدرى » ! وما أشد أسى الذين لم يكتب لهم أن يكونوا من جنود هذه الغزوة المباركة !

كيف يمشى هؤلاء الذين لم يحضروا غزوة بدر ، وكيف تطمئن لهم جنوب أو تسكن قلوب ، وقد رأوا أن رفاقهم سبقوا بالأجر : أجر بدر ؟ وكيف يخالطون أصحابهم الغزاة ، وكيف يكلمون الرسول ، وهم يرون فى أنفسهم منقصة تؤخرهم عن مجالس هؤلاء الغزاة ، لأنهم ليسوا ببدريين !

حاور أنس بن النضر نفسه فلم يقنعه منها عذر ؛ فآثر أن

يتوارى عن قومه ، وأن يعتزل مجالسهم ، مقسماً أنه لن يغفر هذه الحوبة لنفسه حتى يلاقى غزوة كغزوة بدر ، يحملها ما لم تحمل ، ويحمل منها فوق ما حمل أصحابه ، فاذا سمع « ببدر » رأيت وجهه اكتأب وأساريره انقبضت ، لأن حديث بدر — عنده — حديث ذو شجون ، فيسأل نفسه إذا اشتد به الأمر :

— أعهد بدر الثانية عنك بعيد ؟ رب أقرب بدراً

وقد عجب أصحابه لوجومه وانصرافه عن مجالسهم ، ولم يروا منه إلا كل خلة حميدة ، وعقيدة صلبة ؛ يرونه يمشى كمن يلوذ بجدار ، ويرتاح إلى الليل الأسود كمن يتخذه لباساً ، ويجنح إلى العزلة كمن هو على موعد من ربه ... وتحدث القوم بينهم : ما بال أنس لا يطأ مجالسنا ؟ أأذىً به أم عارض ؟ وكان الرسول لا يلمحه إلا معتزلاً فى زاوية وحده ، لا يسمعه سامع إلا هاجساً ببدر ، مستفسراً عن بدر ؛ وقد أقلق الرسول حاله ، فسأله :

— ما خطبك يا أنس ؟

فقال أنس :

— « يارسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ! »

ففهم الرسول أمره ، وبارك عزيمته وقال :

— أما وقد نويت :

ولم يقف الرسول على شىء من أمره بعد مقابلته . وها هى المقادير جاءت تنتقم « لأنس » ، وتكتبُ اسمه فى سجل الغزاة الثابتين ، وها هى الأيام كرت تجدد « بدراً » ثانية ، ليس موعدها بدراً ، لكن أحُدا ! فهب البدريون إلى شحذ سيوفهم البدرية ولا تزال أغمدتها مكتسية دماً ، ورماحهم ولا تزال ثعالبها حُمرا ، ونشط من لم يحضروا بدراً لينالوا من الأجر ما لم ينالوه ، فكان الأولون يمشون ثابتى الأقدام ، مستخفين بأعدائهم عند الروع ؛ وكان الآخرون يمشون خفافاً كمن أزيح عن صدره ثقل الجبال ، وقد ارتاحت من أنس نفسه ، ودنا يحدث صحبه كأن لم يكن له عهد بتلك الوحشة

بزغ الفجر من وراء أحد ، وأفاقت قعقعة الرجال : وتيقظ كل ثأر قديم وكل خصومة قديمة ، فلم يمهل بعضهم بعضاً بالبراز وانهم لايملكون أنفسهم فى مثل هذا اليوم ، وقد ود « أنس » قبل زحفه إلى الشهادة أن يكلم الرسول فيكتسب منه دعوة صالحة أو يراه فيذكر الرسول وجومه فيقول له :

— إيه يا أنس ! اليوم بدر !

ولكن الزحام شديد والقتام ساطع والعدو راصد ، والنبى قد وزع عقله هنا وقلبه هناك ، يهدى ويوصى ويرشد وقد ذهب أمامه أقرباؤه قروم الحرب وأبطال الشدائد ، فأقلع أنس عن رغبته وأدرك أنه لم يكتب له الحظ أن يمس جلده جلد رسول الله قبل آخر العهد [1] ، فانطلق زاحفاً إلى صفوف المشركين يضرب بيديه وبسيفه ورمحه وفرسه ، وكأن المقادير أرادت أن تنتقم له انتقاماً حسناً فلم تظهر ثباته وصدقه فى جمع ظفر ، لكن فى جمع تفرق وانكسر ، ولم يثبت فيه إلا كل أروع صنديد ؛ فكرام من الصحابة يذودون عن النبى بأرواحهم وأجسادهم ! وكرام من الصحابة شدوا على العدو المحيط بهم وقد أبت لهم عقيدتهم أن ينهزموا ويستسلموا ! وهذا أنس لا يزال يجول وما زادته جراحه الكثيرة إلا زيادة فى الثبات . وهل أكرم من الثابتين عند الله ؟ وما زادته سراويله الحمر إلا استقتالاً وطمعاً فى ذلك الأجر الذى تلوّح له به بدر ؛ لكن يوم بدر كان يوم ظفر ، ويوم أحد أسود الجلباب ! فحيثما يطأ يجد صحابيا جريحاً يئن ، وأيان توجه يرَ قتيلا تزفه الحور العين

— بادر يا أنس ! فهذا هو يوم الأجر الأكبر ، وهذا هو يوم الرضوان ، ما ينفع تأجيل الموت وفى الشهادة حياة ؟

وإنه ليحدث نفسه بهذا الحديث فيستقبله سعد بن معاذ فيقول له :

— « ياسعد ! الجنة ورب النضر ، انى لأجد ريحها من دون أحد . . . »

فيتركه سعد ويود لو يصنع ما يصنع ، ولكن رجال الله رجال ، فيلتفت أنس إلى قومه فيقول :

— اللهم إنى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء !

ويلتفت إلى المشركين فيقول :

— وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء !

---

(١) مر الرسول فى غزوة بدر بسواد بن غزية وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال استقم يا سواد ! فقال أوجعتنى يارسول الله ! فأقدنى من نفسك . فكشف الرسول عن بطنه وقال استقد ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال الرسول ماحملك على ذلك ؟ فقال : قد حضر ما ترى يارسول الله فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك

ثم يحمل مقتحماً صفاً من المشركين المضرجة سيوفهم ونصالهم بدماء أصحابه فلا يزال مقتحماً فى حملته وقد أعجز المشركين رده وأحزن قومه فقده . وإن المعركة لتنتهى وقد بذل فيها الفريقان من فلذات الأكباد والأولاد لها طعاماً ، وهيهات أن تشبع ! فيقوم أبو سفيان يقول :

— أفى القوم محمد ؟ فلا يجيبه أحد . أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فلا يجيبه أحد . أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلا يجيبه أحد

فيقول :

— أما هؤلاء فقد قتلوا

فلا يملك عمر نفسه فقال :

— كذبت والله يا عدو الله — إن الذين عددت لأحياء كلهم !

إنهم لأحياء ، وإن الحياة هى التى أنطقت عمر بالرغم من نهى الرسول ، وهل يخنق للحياة صوت ؟

إن هؤلاء أحياء ، والذين استشهدوا منهم أحياء !

فيجيب أبو سفيان :

يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ! إنكم ستجدون فى القوم مُثلة لم آمر بها ولم تسؤنى : أعلُ هبل ، أعلُ هبل !

فيجيبه أصحاب الرسول :

— الله أعلى وأجل !

فيقول : إن لنا العزى ولا عزى لكم

فيجيبونه : الله مولانا ولا مولى لكم

* * *

تنتهى هذه المحاورة ويؤوب أبو سفيان إلى قومه وقد شفوا قلوبهم وغسلوا عار يوم بدر ، وهب المسلمون إلى تلمس قتلاهم واستنقاذ جرحاهم وقد راعهم أن يمثل المشركون بالشهداء منهم وهم لو أرادوا تمثيلاً بهم لمثلوا . ولبث النبى فى مكانه يعالج أصحابه نزيفاً منه كاد يودى به ، وهو يرتقب جثة عمه حمزة وقد أشجاه ما أشجاه ، فجاءت الجثة بغير كبد والوجه معبوث بملامحه . فناب الصمت عن البيان ، وحجبت هذه الداهية غيرها من دواهى أحد ؛ فجمع المسلمون جثث قتلاهم يدفنونها متراكمة فى موضع المعركة وقد أسآهم فى مصابهم ما أصاب الرسول فى عمه . فكان ينظر إلى الذين يغيبهم التراب إلى الأبد نظرة صامتة ، وعينه لا تتمثل إلا مصرع حمزة

لم يعد أنس جريحاً ولم يبن قتيلاً فى المعركة ، وقد ذهبت أخته تتحرى عنه بين القتلى فيمن تحرى ، حتى وقعت على قتيل خفيت تقاسيم وجهه ، وذهب جلده قدداً ، فى بدنه بضع وثمانون من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم . أهذا هو أنس صريعاً ؟ لكن وجهه لا يفصح ، وبدنه لا يبين عنه . لكن هذه بنانه قد أبقى عليها المشركون ولم يمسوها بسوء . مثلوا بجسده ماشاءوا أن يمثلوا بعد أن ملأهم ضربه غيظاً وقتاله حقداً ، وذهلوا عن بنانه

— رحمك الله يا أنس ! لقد برزت بعهدك الذى عاهدت ، وأدركت الأجر الذى طلبت . أليس فضل الثابتين فى أحد كفضل أصحاب بدر ؟

قضى أنس ولم يذكر مصرعه القوم ، لأن مصارع أذهلت عن مصارع . والرسول لم تندمل كلومه ، ولم يبرح مصرع حمزة قلبه .

لم يقتل حمزة وحده ولم يقتل أنس وحده ، بل قتل معهما « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه [1] » وهؤلاء هم الذين قتلوا فى سبيل ما عاهدوا الله عليه

* * *

خمدت وقعة أحد ، وكان الرسول كلما مر بأحد استبشعر خشية ، والتفت إلى أصحابه كأنما يلتمس فى هذا الجبل شيئاً قدسيا يهبط على نفسه . التفت يقول لهم :

— « إن أحداً يحبنا ونحبه ! »

وكيف لا يحبونه وقد أطافت به أرواح الأعزاء وثوت فيه أجساد الشهداء وكيف لا يهتز الرسول لأحد وفيه قد أدّوا ثمن العقيدة والصدق والاخلاص من دمائهم وقلوبهم

أما إن لكل أمة « أحداً » تذكره وتعتز بذكره لأنه رمز ضحاياها الغالية التى عملت لها . وهذه الأمة المشتتة تحت كل كوكب ، المعتزة بإيمانها وعقيدتها تقيم فى كل زاوية « أحداً جديداً » تقدم له كل يوم ضحايا عزيزة من دمائها وقلوبها ! حتى غدت مواطنها : « كل موطن أحد » وشهداؤها : « كل شهيد أنس » .

خليل هنداوى

(١) ذكر المفسرون أن هذه الآية الكريمة نزلت فى « أنس بن النضر » وأصحابه